الفصل الرابع

الشعراء المخضرمون
ومدى تأثرهم بالإسلام

١

كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام

من يقرأ فى شعر المخضرمين متصفّحاً ما نُثر فى كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصدرون فى جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التى آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم . ولشعراء المدينة القِدْحُ المعلَّى فى هذا الميدان ، فهم الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم منذ نزوله بين ظهرانيهم ينافحون عنه ويدافعون عن دعوته مصوّرين لهدْيه الكريم ، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان عبد الله خاصة دائم الاستمداد من القرآن يستلهمه فى هجائه للمشركين وفى كل ما ينظم من أشعار ، على شاكلة قوله[١] :

شهدتُ بأن وعد الله حَقٌّ ... وأن النار مَثْوَى الكافرينا

وكان بجانب هؤلاء الثلاثة شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم فى الشهرة الشعرية ، وقد رُويت لهم أشعار تنمّ عن مدى إيمانهم العميق كقول أبى قيس صِرْمة بن أبى أنس الأنصارى فى قصيدة بديعة[٢] :

ونعلم أن الله لا شىء غيرُه ... وأن كتاب اللهِ أصبحَ هاديا

وقول أبى الدَّرْداء[٣] :

يريد المرء أن يُؤْتَى مُناهُ ... ويأبى اللهُ إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتى ومالى ... وتقوى الله أفضلُ ما استفادا

---

(١) الاستيعاب ص ٣٦٢ .

(٢) الاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .

(٣) الاستيعاب ص ٦٦٣ .

وتحوَّل شعراء قريش منذ فُتحت مكة ودخلوا فى دين الله يكفّرون عما قدَّمَتْ ألسنتهم بأشعار ، يعتذرون فيها للرسول صلى الله عليه وسلم كقول ابن الزِّبَعْرى[١] :

يا رسولَ المليك إنَّ لسانى ... راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُور[٢]

إذ أجارى الشيطان فى سَنَنِ الغَـ ... ـىِّ ومن مال مَيْلَهُ مَثْبُـورُ[٣]

آمن اللحمُ والعظامُ بما قُلْـ ... ـتَ فنفسى الفِدَا وأنت النَّذيرُ

وقد حَسُن إسلامهم ، ومضوا يصدرون عنه فى أشعارهم ،حتى إذا انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجَّعون عليه ، على شاكلة قول أبى سفيان بن الحارث[٤] :

لقد عظمتْ مُصيبتُنا وجَلَّتْ ... عشيَّةَ قِيل : قد قُبِضَ الرسولُ

نبيٌّ كان يَجْلُو الشكَّ عنـا ... بما يوحَى إليه وما يقـولُ

وإذا تركنا شعراء المدينتين الكبيرتين إلى شعراء نجد والبوادى وجدنا بينهم كثيرين يَقْبسون من أضواء الإسلام ،ولا نقصد من خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله فحسب ، فقد عمَّ ذلك مَنْ ظلوا فى الجزيرة ولم يُتِحْ لهم تقدم سنهم شرف الاشتراك فى هذا الجهاد .

ونحن نقف عند مشهوريهم ، ثم نعطف على من لم يبلغوا مبلغهم من الشهرة ،ولعل أول من ينبغى الوقوف عنده عَبْدة بن الطبيب الذى تحدثنا عنه فى شعر الفتوح ، فقد رَوَى له صاحب المفضليات عينية بديعة ، ونراه فى شطر كبير منها يوصى أبناءه بتقوى الله وبِرِّ الوالد والحذر من النمَّام الذى يَزْرع الضغائن بين الناس ، مستلهماً فى ذلك كله آى الذكر الحكيم ، يقول[٥] :

أوصيكمُ بتُقَى الإلٰه فإنـه ... يعطى الرغائبَ من يشاء ويمنعُ

وبِبِرِّ والدكم وطـاعةِ أمره ... إن الأَبَرَّ من البنين الأَطْـوَعُ

---

(١) ابن سلام ص ٢٠٢ .

(٢) رتق الفتق : خاطه . بور : ضال هالك .

(٣) سنن : طريق . مثبور : هالك ضائع .

(٤) الاستيعاب ص ٧٠٨ .

(٥) المفضليات ص ١٤٦ .

واعصوا الذى يُزْجِى النَّمائم بينكم متنصِّحا ذاك السِّمام المُنْقَعُ[١]
يُزْجى عقاربَهُ ليبعث بينكم حَرْباً كما بعث العروقَ الأَخْدَعُ[٢]

وهو القائل فى رثاء قيس بن عاصم[٣] :

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ ورحمته ما شاءَ أن يترحَّما
فلم يكُ قيسٌ هُلْكُهُ هلكَ واحدٍ ولكنه بنيانُ قوم تهدَّما

وواضح ما فى البيت الأول من روح إسلامية . وارجع إلى سُوَيْد[٤] بن أبى كاهل اليشكرى فسترى المفضل الضبى يروى له قصيدة[٥] يفخر فيها فخراً جديداً ، لا عهد لنا به من قبل . فخراً إسلامياً يذكر فيه ربَّه وما أنعم به عليهم من نِعَمٍ ، يقول :

كتب الرحمٰنُ والحمدَ لهُ سعَةَ الأَخلاق فينا والضَّلَعْ[٦]
وإباءً للدنيَّاتِ إذا أُعْطِىَ المكثورُ ضَيْماً فكَنَعْ[٧]
وبناءً للمعالى إنما يرفع اللهُ ومن شاء وضَعْ
نعَمٌ لله فينا ربَّها وصنيعُ اللهِ ، واللهُ صَنَعْ[٨]

ويمضى فيعرض لخصم دنىء النفس كان يغتابه ، ونراه يصفه وصفاً يستلهم فيه الآية الكريمة (ولاَ يَغْتَبْ بعضكم بعضاً أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) يقول :

---

(١) يزجى : يدفع ويسوق . السمام : السم . المنقع : القاتل .
(٢) الأخدع : عرق فى العنق إذا ضرب أجابته العروق .
(٣) الشعر والشعراء ٢/٧٠٥ .
(٤) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ١/٣٨٤ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/١٠٢ وابن سلام ص ٢٨ والإصابة ٣/١٧٢ والخزانة ٢/٥٤٦ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ١/١٩٠ .
(٥) المفضليات ص ١٩٠ .
(٦) الضلع : الاضطلاع بالأمر .
(٧) المكثور : المغلوب . كنع : خضع .
(٨) ربها : أتمها . صنع : صفة ، لا فعل ، أى قادر على أن يصنع .

بِئْسَ ما يجمع أن يَغْتابنى مَطْعَمٌ وَخْمٌ وداءٌ يُدَّرَعْ[١]
ويحيِّينى إذا لاقيتُـهُ وإذا يخلو له لَحْمِى رَتَعْ[٢]

وممن أسلم وهو فى سنٍّ كبيرة الحُصَين[٣] بن الحُمام سيد بنى مرَّة الذبيانيين، وله أبيات تطرد على هذا النحو[٤] :

ويوم تسعَّر فيـه الحروبُ لبسْتُ إلى الرَّوْعِ سِرْبالها[٥]
فلم يبق من ذاك إلا التُّقَى ونَفْسٌ تعـالج آجـالها
أمورٌ من الله فوق السماء مقـاديرُ تنزلُ أَنْزَالها[٦]
أعـوذ بربى من المُخْزيـا تِ يوم ترى النفسُ أعمالها
وخَفَّ المـوازينُ بالكافرين وزُلْزِلتِ الأَرض زِلْزالَهـا

والصلة واضحة بين هذه الأبيات وآى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (واتقوا الله) (فإن الله يحب المتقين) (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون) (وإنْ من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزِّله إلا بقدَرٍ معلوم) وقوله عزَّ شأنه : (إذا زُلزلت الأرض زلزالها) (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفّت موازينه فأمُّه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية) (ووفِّيتْ كلُّ نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) .

واقرأ فى النَّمِر[٧] بن تَوْلب ،وهو ممن أدركوا الإسلام وقد عَلَتْ سنُّهم،

---

(١) وخم : غير مرىء . يدرع : يلبس .
(٢) رتع : أكل بنهم .
(٣) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢/ ٦٣٠ وابن سلام ص ١٣١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/ ١ وما بعدها والاستيعاب ص ١٢٧ وأسد الغابة ٢/ ٢٤ والإصابة ٢/ ١٨ والخزانة ٢/ ٧
(٤) أغانى ١٤/ ١٤ .
(٥) تسعر : تتقد . السربال : الدرع .
(٦) أنزالها : منازلها . تنزل أنزالها : تقع مواقعها .
(٧) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٦ والشعر والشعراء ١/ ٢٦٨ وابن سلام ص ١٣٣ والأغانى ١٩/ ١٥٧ والموشح ٧٨ والخزانة ١/ ١٥٢ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦/ ٢٥٣ .

فسنرى فى شعره آثاراً من تلاوته للقرآن الكريم ، على شاكلة قوله[١] :

ومتى تُصِبك خَصاصةٌ فارْجُ الغِنَى ... وإلى الذى يُعْطى الرَّغائبَ فارغبِ

وهو القائل[٢] :

أَعِذْنى رَبِّ من حَصَرٍ وعِىٍّ ... ومن نَفْسٍ أُعالجُها عِلاجا
ومن حاجات نفسى فاعْصِمَنِّى ... فإنَّ لمُضْمَرات النفس حاجا[٣]
وأنت وَلِيُّها فبرئتُ منها ... إليك وما قضيتَ فلا خِلاجا[٤]

ويُرْوَى أنه أنشد الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة قال فيها[٥] :

لله من آياتِــهِ هذا القَمَــرْ ... والشمسُ والشِّعْرَى وآياتٌ أُخَرْ

ومرتْ بنا استجارةُ المخبّل[٦] السَّعْدى بعمر بن الخطاب حين هاجر ابنه للغزو وكيف ردَّه عليه ، ومن قوله فى نهاية قصيدة له رواها المفضل الضبى[٧] :

إنى وجدتُ الأمر أرشدُه ... تقوى الإلٰهِ وشَرُّهُ الإثْمُ

وكان فى الشَّماخ[٨] شركثير ، وهو ممن شاركوا فى معركة القادسية ومعارك أذربيجان ، ومع ذلك لا نجد فى ديوانه شيئاً واضحاً عن جهاده فى سبيل الله ، وكأنما عُنِى الرواة بشعره البدوى وإحسانه فيه لوصف القَوْس وحمار الوحش[٩] ، ومما يتمثَّل به من شعره[١٠] :

ليس بما ليس به بأْسٌ باسْ ... ولا يَضُرُّ البَرَّ ما قال الناسْ

---

(١) الشعر والشعراء ١/٢٦٩ والأغانى ١٩/١٦١ .
(٢) الأغانى ١٩/١٦٢ والحيوان ٢/٣٠٥ .
(٣) حاج : جمع حاجة .
(٤) خلاج : اعتراض .
(٥) أغانى ١٩/١٥٩ .
(٦) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ١٠/٣٨٣ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/١٨٩ والإصابة ٢/٢١٨ والخزانة ٢/٥٣٦ والموشح ص ٧٥ .
(٧) المفضليات ص ١١٨ .
(٨) راجع فى ترجمته ابن سلام ص ١١٠ والشعر والشعراء ١/٢٧٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ٩/١٥٨ والخزانة ١/٥٢٦ والإصابة ٣/٢١٠ والموشح ص ٦٧ .
(٩) انظر ترجمته فى المراجع السابقة وراجع الحيوان ٥/٧٩ .
(١٠) الشعر والشعراء ١/٢٧٧ وبأس الأولى : شجاعة .

وقد أنشدنا فى الفصل السابق أبياتاً من مرثية أخيه جَزْء لعمر بن الخطاب، واشتهر أخوهما مزرِّد[١] بهجائه وخاصة للأضياف، ويظهر أنه ارعوى وتاب عن الهجاء. كما يدل على ذلك قوله[٢] :

تنزَّلتُ من شَتْم الرجال بتَـوْبةٍ إلى الله منى لا ينادَى وليـدها

ومن شعراء هُذَيْل البارعين فى هذا العصر أبو ذُؤَيْب[٣] الهُذَلى. وقد قدم المدينة عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف يبكيه مع الباكين قائلا من أبيات[٤] :

كُسِفَتْ لمصرعِه النجومُ وبَدْرهـا وتزعزعتْ آطامُ بَطْنِ الأَبْطحِ
وتزعزعتْ أجبالُ يَثْرِبَ كلُّهـا ونَخِيلُها لحلول خَطْبٍ مُفْدِحِ

وهو فى ديوانه يُعْنَى بوصف النَّحْل، مثله فى ذلك مثل شعراء هذيل. وقد خرج يغزو فى سبيل الله، ونراه فى جنود عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح الذين فتحوا قرطاجنة، وقد أرسل به مع عبد الله بن الزبير إلى عثمان مبشرين له بفتحها. وعاد إلى مصر، ولكن حدث أن توفِّى له — قبل وفاته بعام — خمس بنين فى وباء، فرثاهم بعينيته المشهورة وفيها نحسٌّ رضاه بقضاء الله مع التحسر اللاذع على نحو ما نجد فى قوله[٥] :

أَوْدَى بنىَّ وأعقبونى غُصَّةً بعد الـرُّقاد وعبرةً لا تُقْلِعُ
فَغَبَرْتُ بعدهمُ بعيشٍ ناصبٍ وإخال أنى لاحقٌ مُسْتَتْبَعُ[٦]

---

(١) راجع فى ترجمة مزرد الشعر والشعراء ١/٢٧٤ والخزانة ٢/١١٧ والإصابة ٦/٨٥ ومعجم الشعراء ص ٤٨٣ ومعاهد التنصيص ١/٢٠٢.

(٢) الإصابة ٦/٨٥.

(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ١١٠ والشعر والشعراء ٢/٦٣٥ والأغانى ٦/٢٦٤ والاستيعاب ص ٦٦٥ والإصابة ٧/٦٣ والخزانة ١/٢٠٣ وأسد الغابة ٥/١٨٨ ومعاهد التنصيص ١/١٩٥ ومعجم الأدباء لياقوت (طبع مصر) ١١/٨٣ وشرح شواهد المغنى ١٠ والاشتقاق (نشرة الخانجى) ص ١٧٨

(٤) الاستيعاب ص ٦٦٦.

(٥) انظر ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب المصرية) ١/١ وما بعدها.

(٦) غبرت : بقيت . ناصب : متعب. مستتبع : تابع.

وإذا المنيَّةُ أنشبتْ أظْفَـارَها ألفيتَ كل تَميمةٍ لا تنفعُ
والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبْتها وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنعُ

ورَوى الرواة أنه قال حين حضره الموت يخاطب ابن أخ له يسمى أبا عبيد[١] :

أَبا عُبَيْدٍ وقـع الكتابُ واقترب الوعيـد والحسابُ

وأشاع الإسلامُ فى نفوس كثير من الشعراء براً ورحمة بأهليهم وأقربائهم. ويشتهر فى هذا الصدد عمرو بن شَأس الذى سبق أن عرضنا له فى شعر الفتوح، فقد كان له ابنٌ من أمة سوداء، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به فعاتبها بقطعته المعروفة[٢] :

أَردتِ عِرارًا بالهوان ومَنْ يُرِدْ عِرارًا لعَمْرى بالهوان فقد ظَلَمْ

وكان ينحو هذا المنحى مَعْن[٣] بن أوس المُزَنى فى عتابه لابن عمه الذى أساء إليه إساءة كبيرة. وظل يسىء إليه وهو يوالى أشعاره فى صَفْحه عن زلاته برًّا به وبقرابته مع تجنّيه عليه وتجرّمه. يقول[٤] :

وذى رَحِمٍ قلَّمت أظفار ضِغْنِهِ بحلمىَ عنه وهو ليس له حِلْمُ
فما زلتُ فى لينٍ له وتعطُّفٍ عليه كما تَحْنُو على الولد الأُمُّ

ومن غير شك كان يستهدى فى ذلك آى الذكر الحكيم التى تدعو إلى البر بالأقرباء والصفح الجميل. ويمرض عمرو[٥] بن أحمر الباهلى فيتوجه إلى ربه داعياً[٦] :

---

(١) أغانى ٦ / ٢٧٩ ومعجم الأدباء ١١ / ٨٩.

(٢) ابن سلام ص ١٦٦ والشعر والشعراء ١ / ٣٨٩.

(٣) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ / ٥٤ والإصابة ٦ / ١٧٩ والخزانة ٣ / ٢٥٨ وانظر فهرس البيان والتبيين والحماسة للمرزوقى ومعجم الشعراء ص ٣٢٢ ومعاهد التنصيص. وقد نشرت أشعاره فى ليبزج.

(٤) أغانى ١٢ / ٦٠ وديوانه (طبعة ليبزج) ص ٥ ، ٣٦.

(٥) راجع ترجمته فى ابن سلام ص ٤٩٢ والشعر والشعراء ١ / ٣١٥ والإصابة ٥ / ١١٤ والخزانة ٣ / ٣٨ ومعجم الشعراء ص ٢٤ والموشح ص ٨٠.

(٦) الشعر والشعراء ١ / ٣١٦ وقد روى له ابن سلام قطعة حكمية يقول فيها :

والحى كالميت ويبقى التقى والعيش فنان فحلو ومـر

إليك إلهَ الحق أرفع رغبتى عِياذاً وخوفاً أن تُطيل ضَمانِيا[١]
فإن كان بُرْءًا فاجعل البُرْءَ نعمةً وإن كان فَيْضاً فاقض ما أنت قاضيا[٢]

وممن نحس عندهم أثر الإسلام واضحاً نهشل[٣] بن حِرِّى فى مراثيه لأخيه مالك ، وكان قد قُتل بصِفِّين ، ومن قوله فى إحداها[٤] :

أُناسٌ صالحون نشأْت فيهم فأَوْدَوْا بعد إلفٍ واتساقِ
أرى الدنيا ونحن نعيشُ فيها مـولِّيَةً تهيَّـا لانطـلاق
أعاذلَ قد بقيتُ بقاءَ قيسٍ وما حيٌّ على الدنيا بِباق

وكان بجانب من قدَّمنا شعراء عُرفوا برقة دينهم ، ومع ذلك فحين نتعقب شعرهم نجد فيه خيوطاً إسلامية تظهر فى نَسْجه من حين إلى حين ، منهم عَبْد[٥] بنى الحَسْحاس ، وكان يتغزل غزلا مفحشاً جعل قومه يقتلونه لعهد عثمان ونراه يقول :

عُمَيْرَةُ وَدِّعْ إن تجهَّزتَ غازيا كفى الشيبُ والإسلام للمرء ناهيا

ويُرْوَى أنه أنشد هذا البيت عمر بن الخطاب فقال له : لو قلت شعرك مثل هذا لأعطيتك عليه . ومثله النجاشى[٦] قيس بن عمرو ، الذى حَدّه على بن أبى طالب فى شرب الخمر برمضان ، وقد تهاجى مع كثير من الشعراء وعلى رأسهم تميم بن أُبَىّ بن مقبل العَجْلانى ، وفيه وفى قبيلته يقول :

إذا الله عادَى أهل لؤمٍ ودقَّةٍ فعادى بنى العَجْلان رهط ابن مُقْبِلِ[٧]
قبيلةٌ لا يغدرون بذمَّـةٍ ولا يظلمون الناس حَبَّة خَرْدَلِ

---

(١) الضمان : ما يصيب الإنسان فى جسده من مرض أو زمانة .
(٢) فيضا : موتا .
(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ٤٩٥ والشعر والشعراء ٢/٦١٩ والأغانى ٩/٢٧٠ والإصابة ٦/٢٦٨ والخزانة ١/١٤٧ .
(٤) أمالى المرتضى ٢/٢٢٦ .
(٥) انظر ترجمة عبد بنى الحسحاس فى أغانى (ساسى) ٢٠/٢ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٣٦٩ وابن سلام ص١٥٦ والإصابة ٣/١٦٣ والخزانة ١/٢٧١ وشرح شواهد المغنى ١١٢ . وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه .
(٦) راجع فى ترجمة النجاشى الاشتقاق لابن دريد (نشرة الخانجى) ص٤٠٠ والشعر والشعراء ١/٢٨٨ والإصابة ٦/٢٦٣ والخزانة ٤/٣٦٨ .
(٧) البيت دعاء على بنى العجلان ، وواضح أن النجاشى يرميهم بأن أحسابهم لئيمة خسيسة .

ولو أنه كان صحيح الإسلام ما هجاهم بالبيت الثانى ، فإن الإسلام يُجِلُّ الوفاء بالذمم والعهود وينهى عن الظلم وكل ما يتصل به ولكن روحه كانت جاهلية . وكان ابن[١] مقبل على شاكلته ، يقول ابن سلام : « إنه كان جافياً فى الدين وكان فى الإسلام يبكى أهل الجاهلية »[٢] ومع ذلك ندَّتْ على لسانه أبيات فيها ما يدل فى وضوح على تأثره بالدين الحنيف من مثل قوله[٣] :

هل الدَّهْرُ إلا تارتان فمنهما أَموت وأُخرى أَبتغى العيش أَكْدَحُ
وكلتاهما قد خُطَّ لى فى صحيفةٍ فلا الموتُ أَهْوَى لى ولا العيش أَرْوَحُ

وهو يَصْدر فى البيتين عن الآية الكريمة : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتابٍ من قبل أن نَبْرَأها) ومما يُرْوَى له قوله[٤] :

الناسُ هَمُّهم الحياةُ ولا أرى طول الحياة يزيد غير خَبالِ
وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجد ذُخْرًا يكون كصالح الأَعمالِ

وممن يُسْلك فى هؤلاء الشعراء الذى عُرفوا برقة دينهم الحطيئة ، وسنرى عما قليل أثر الإسلام فى شعره .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على فساد الفكرة التى شاعت بين الباحثين عرباً ومستشرقين من أن الإسلام لم يترك آثاراً عميقة فى نفوس المخضرمين ، وخاصة أهل البادية[٥] ، فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم جميعاً . ونحن نقف عند خمسة منهم يُعَدُّون فى طليعتهم هم حسان بن ثابت وكعب بن زهير ولبيد والحطيئة والنابغة الجعدى ، لنرى فيهم مدى تأثر المخضرمين بالإسلام ، ولندل فى وضوح على أن هذا التأثر لم يقف عند شعراء المدينة من مثل حسان ، فقد نفذ إلى شعراء البادية وتعمَّقهم على نحو ما سنرى عند لبيد والنابغة الجعدى .

---

(١) راجع فى ترجمة ابن مقبل الشعر والشعراء ٤٢٤/١ وابن سلام ص ١٢٥ والإصابة ١٩٥/١ والخزانة ١١٣/١ وزهر الآداب ١٩/١ .

(٢) ابن سلام ص ١٢٥ .

(٣) الحيوان للجاحظ ٤٨/٣ .

(٤) طبرى ٢٩/٥ .

(٥) راجع مثلا تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية لنالينو (طبع دار المعارف) ص ٩٥ .

٢

حسان[١] بن ثابت

كان أبوه ثابت بن المنذر بن حَرام الخزْرجى « من سادة قومه وأشرافهم »، وكانت أمه « الفُرَيعة » خزرجية مثل أبيه ، وقد أدركت الإسلام ودخلت فى دين الله[٢]. وهو يُسْلك فى المعمرِّين إذ يقال إنه عاش فى الجاهلية ستين سنة وفى الإسلام ستين أخرى، وهى سنٌّ تقريبية ، فقد قيل إنه توفىَّ قبل الأربعين ، وقيل بل سنة خمسين وقيل بل سنة أربع وخمسين. وهو ليس خزرجيًّا فحسب ، بل هو أيضاً من بنى النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فله به صلة قرابة ورحم .

ونراه قُبَيْل الإسلام يتردد على بلاط الغساسنة، ويقال إنه مدَّ رحلاته إلى بلاط النعمان بن المنذر ؛ وكان لسان قومه فى الحروب التى نشبت بينهم وبين الأوس فى الجاهلية، ومن ثَمَّ اصطدم بالشاعرين الأوسيين : قيس بن الخَطيم وأبى قيس بن الأسْلت[٣] . ويقال إنه عرض شعره على النابغة بسوق عكاظ ، وقدَّم عليه الأعشى ، فأثار موجدته[٤] .

ويهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فيدخل حسان فى الإسلام ، حتى إذا أخذ شعراء قريش فى هجاء الرسول وصحبه من المسلمين انبرى لهم بلاذع هجائه، وكان رسول الله يحثّه على ذلك ويدعو له بمثل : «اللهم أيِّدْه بروح القدس» واستمع إلى بعض هجائه لهم فقال : « لهذا أشدُّ عليهم من

---

(١) انظر فى ترجمة حسان ابن سلام ص ١٧٩ وفى مواضع متفرقة وأغانى (دار الكتب) ٤/ ١٣٤ وما بعدها و ١١/ ٢٧ و ١٤/ ١٥٧ و (طبعة الساسى) ١٦/ ١٢ وما بعدها والشعر والشعراء ١/ ٢٦٤ والموشح ص ٦٠ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ ١٢٥ والاستيعاب ص ١٢٨ والإصابة ٢/ ٨ وسير أعلام النبلاء للذهبى (طبع دار المعارف) ٢/ ١١٥ و ص ٣٦٦ وما بعدها وشرح شواهد المغنى ص ١١٤ والخزانة ١/ ١٠٨ . وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة فى ليدن بتحقيق هرشفيلد وفى مصر بتحقيق البرقوقى وفى تونس والهند وبيروت ، وسنعتمد فى المراجعة على طبعة ليدن .

(٢) انظرها فى ابن سعد ٨/ ٢٧١ .

(٣) انظر أغانى (دار الكتب) ٣/ ١٢ والديوان ص ٥٢ وفى مواضع متفرقة .

(٤) أغانى (دار الكتب) ٩/ ٣٤٠ .

وقع النَّبْل » ، وفى حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أمرتُ عبد الله ابن رواحة (بهجاء قريش) ، فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى» . ومرَّ بنا فى الفصل السابق أنه لم يكن يهجو قريشاً بالكفر وعبادة الأوثان ، إنما كان يهجوهم بالأيام التى هزموا فيها ويعيِّرهم بالمثالب والأنساب . وهذا طبيعى لأنهم كانوا مشركين فعلا ، فلو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغاً ، ويُرْوَى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبى بكر فليحدثْك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهْجُهُم وجبريل معك »[1] .

ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض فى حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، ونراه يعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً ، من مثل قوله :

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبــةٍ وتُصْبح غَرْثَى من لحوم الغوافِل[2]

فإن كان ما قد قيل عنِّىَ قُلتُــه فلا رفعتْ سوطى إلىَّ أناملى

ويظهر أن بعض المهاجرين وعلى رأسهم صفوان بن المعطّل أثاروه فى هذا الحادث ، حتى وجد وجْداً شديداً ، فقال :

أمسى الجلابيبُ قد عَزُّوا وقد كثروا وابنُ الفُرَيْعة أمسى بَيْضَةَ البلدِ[3]

على أنه مضى فى نفس القصيدة يعلن إخلاصه للإسلام وأنه سيستمر فى ذَبِّه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال إنه كان ينشد الرسول شعره فى المسجد ، والذى لا شك فيه أنه كان يحظى منه بمنزلة رفيعة ، حتى ليُرْوَى أنه كان يرفع أزواجه إلى أُطُمه حين يخرج لحرب أعدائه ، وكان حين يعود يَقْسم له فى الغنائم ، وقد أهداه بستاناً ، كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية ، وهى أم ابنه عبد الرحمن . وكان

---

(١) انظر فى هذا الحديث وما قبله ترجمته فى كتب الصحابة والأغانى ٤ / ١٣٧ وما بعدها .

(٢) حصان : عفيفة . رزان : ذات وقار . تزن : تتهم . غرثى : جائعة . يريد أنها لا تغتاب النساء .

(٣) سمى بعض المهاجرين الجلابيب استصغاراً لشأنهم . البلد هنا : النعام . وفى المثل هو أذل من بيضة البلد لأن النعام يترك بيضه فيحضنه غيره .

الخلفاء الراشدون يجلّونه ويفرضون له فى العطاء . ويقال إنه وفد على معاوية وأنه عَمِيَ بأخرة .

وبحقّ سُمّى حسان شاعر الإسلام ورسوله الكريم، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركى العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مُصْمية. وقصته مع الحارث بن عوف المُرّى حين قُتل فى جواره داعٍ من دعاة الرسول مشهورة، فقد قال فيه وفى عشيرته :

إن تَغْدِروا فالغَدْرُ منكم شِيمةٌ والغَدْرُ يَنْبُتُ فى أُصول السَّخْبَرِ (١)

وبكى الحارث من هجائه له بدموع غزار ، واستجار بالرسول متوسلا إليه أن يكفّه عنه. وقد مضى حين قدم على الرسول وفد بنى تميم يردُّ على شاعر هذا الوفد الزِّبْرقان بن بدر مادحاً للمهاجرين مدحاً رائعاً . يقول فى تضاعيفه :

إن الذوائبَ من فِهْرٍ وإخوتهم قد بَيَّنُوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ (٢)
يَرْضَى بها كل من كانتْ سريرتُه تَقْوى الإلٰهِ وبالأَمر الذى شرعوا
إن كان فى الناس سبَّاقون بعدهمُ فكلُّ سَبْقٍ لأَدْنى سبقهم تَبَعُ
أَهْدَى لهم مِدَحِى قلبٌ يؤازره فيما أَراد لسانٌ حائكٌ صَنَعُ

ومن المحقق أنه كان شاعراً بارعاً . وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل المدر فى عصره وأنه أشعر اليمن قاطبة . وقد خلّف ديواناً ضخماً رواه ابن حبيب، غير أن كثيراً من الشعر المصنوع دخله ، يقول الأصمعى : «تُنْسَب إليه أشياء لاتصحّ عنه »(٣) ويقول ابن سلام : « قد حُمل عليه مالم يُحْمَلْ على أحد ، ولما تعاضهت (تشاتمت) قريش واستبّت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنْقّى »(٤) . وكان ممن حَمل عليه غُثاءً كثيراً ابنُ إسحق فى المغازى، ولاحظ ذلك ابن هشام وهو يَرْوى عنه السيرة النبوية . فكان يرجع إلى العلماء بالشعر وعلى رأسهم أبو زيد الأنصارى راوية البصرة المشهور يسألهم عن صحة أشعار حسان

---

(١) السخبر : شجر ، ومن أمثالهم : ركب فلان السخبر إذا غدر .
(٢) الذوائب : الأعالى فى الشرف . فهر : قريش ، يريد المهاجرين .
(٣) الاستيعاب ص ١٣٠ .
(٤) ابن سلام ص ١٧٩ .

المروية عندابن إسحق فكانوا يُشْبتون بعضها وينكرون بعضاً آخر وقد يردُّونها إلى غيره من معاصريه ومن جاءوا بعدهم . ومع ذلك نرى كثيراً مما أنكروه مثبتا فى رواية ابن حبيب . ونحن نعرض صنيع ابن هشام لنُعلم مدى ما وُضع على حسان ، فمن ذلك أن نراه كثيراً يقول بعد إنشاده لبعض القصائد : « وأهلُ العلم ينكرون هذه القصيدة لحسان »[١] ومن ذلك أنه نَسب قصيدتين أضيفتا إليه إلى كعب بن مالك[٢] ونسب ثالثة إلى عبدِ الله[٣] بن الحارث السَّهْمى ورابعة إلى معقل[٤] بن خويلد الهُذَلى وخامسة إلى ربيعة بن أمية الدِّيلى وقيل بل هى لأبى أسامة الجُشَمى[٥]. ونسب سادسة إلى ابنه عبد الرحمن[٦]. وإذا مضينا نبحث فى مراجع أخرى وجدنا قطعة لعبد الله بن رواحة تضاف إليه ، وهى فى رثاء نافع بن بُدَيل[٧] ، وكذلك أضيفت إليه قطعة ثانية لعبد الله بن رواحة وهى فى رثاء عثمان[٨] ، وأيضاً أضيفت إليه مقطوعة يائية فى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرة الأوس والخزرج له ، ونصَّ الرواة على أنها لصِرْمة[٩] بن أبى أنس الأنصارى ، ونُسب له بيتان فى الفخر بالأزد وهما لسعد[١٠] بن الحصين الأنصارى ، ونُسبت له مقطوعة رائية ، وهى لبشير[١١] بن سعد بن الحصين .

ونظن ظنًّا أن شعره اختلط بأشعار الأنصار ، وخاصة كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وابنه عبد الرحمن ؛ أما الأولان فقد اشتركا معه فى هجاء قريش ،

---

(١) انظر ابن هشام فى مقطوعة عينية ٣/٥٦ وفى قصيدة عينية ٣/١٤٩ وما بعدها وقابل بالديوان ص٧٦ وهى فى رثاء حمزة ، وانظر حائية فى رثاء حمزة ٣/١٥٩ ومقطوعتين فى رثاء خبيب ٣/١٨٦ وقابل بالديوان ص٤٦ ، ٨٤ وكذلك مقطوعة بائية فى ٣/١٩٢ وقابل بالديوان ص٣٩ ومقطوعتين : لامية ورائية فى عمرو بن ود فى ٣/٢٨١ وقابل بالديوان ص٤٦ .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٣٧ وقابل بالديوان ص ٣٦ وانظر السيرة ٣/٣٦٢ وقابل بالديوان ص ٦٣ .

(٣) السيرة النبوية ٣/٢٠ والديوان ص٢٩ .

(٤) السيرة النبوية ٣/٨١ والديوان ص٨٤ .

(٥) السيرة النبوية ٣/٢٨٢ والديوان ٥١ .

(٦) السيرة النبوية ٤/١٩٩ والديوان ٥١ وراجع الحيوان ٣/١٠٨ حيث تشكك الجاحظ فى مقطوعة تنسب إليه وقال إنها تنسب أيضاً إلى ابنه عبد الرحمن .

(٧) انظر الديوان ص٣١ وقابل بالاستيعاب ص ٣٠٥ وابن هشام ٣/١٩٨ .

(٨) انظر الديوان ص ٧١ وقارن بالاستيعاب ص ٤٩٢ .

(٩) راجع الديوان ص٢١–٢٢ والاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .

(١٠) انظر الديوان ص٤٠ وقارن بالأغانى (طبع الساسى) ١٤/١٢٠ .

(١١) راجع الديوان ص ٤٢ – ٤٣ وقارن بالأغانى ١٤/١٢٠ .

وأما عبد الرحمن فمعروف أنه كان يهاجى النجاشى الحارثى ويذم قومه بنى الحارث بن كعب وعشيرته بنى الحماس ذماً قبيحاً[١] . ومن هنا كنا نشك فيما يضاف إلى حسان من هجائهم ونظن أنه من أشعار ابنه ، حُمل عليه[٢] . ومن هذا الباب أشعاره المملوءة غيظاً على قَتلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون[٣] ليظهروا للناس أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان فى صَفِّهم وليغسلوا عنهم عار الأشعار التى نظمها حسان فى هجاء أسرتهم حين كان أبوسفيان وغيره من رءوسها يقودون الجيوش ضد الرسول ويحادّونه . ومثلها ما يضاف إليه من أشعار فى مديح الزبير[٤] بن العوام وعبد الله[٥] بن العباس ، وكأن الأحزاب السياسية لعبت دوراً فى وَضْع الشعر على لسانه .

والحق أن شعر حسان الإسلامى كَثُرَ الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع فى بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة ، لا لأن شعره لان وضعف فى الإسلام كما زعم الأصمعى ، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال . ونحن نوثّق شعره فى الجاهلية إلا ما اتهمه الرواة[٦] ، ومن رائع هذا الشعر ميميته التى يملؤها ضجيجاً وعجيجاً بمفاخر قومه والتى يقول فيها :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وأسيافُنا يَقْطُرْن من نَجْدَةٍ دَما

ولاميته التى يمدح بها الغساسنة بمثل قوله :

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم شُمُّ الأُنوف من الطراز الأَوَّلِ

أما هجاؤه لقريش فينبغى أن نُبْعد منه ما اتهمه الرواة وأن لانقبل منه إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب ،ومن ثَمَّ كنا نرتضى ميميته(تَبَلَّتْ فؤادَك فى المنام خريدةٌ) التى يعيِّر فيها الحارث بن هشام المخزومى بفراره فى يوم

---

(١) ابن سلام ص ١٢٥ .

(٢) انظر الديوان فى هجاء بنى الحماس الحارثيين قوم النجاشى ص٤٧ ، ٨١ وكذلك انظر مقطوعة رائية ص ٤٨ ونونية ص ٨٢ .

(٣) راجع ابن عبدالبر فى الاستيعاب ص٤٩٢ حيث يذكر أن أهل الشام زادوا عليه فى رثاء عثمان أبياتاً ، وقد رد بيتاً له فيه إلى عمران بن حطان.

(٤) الاستيعاب ص ٢٠٨ وقد نسبت إليه أشعار فى هجاء آل العوام والوضع فيها ظاهر . انظر الديوان ص ٨٥ .

(٥) الديوان ص٧٤ والبيان والتبيين ١ / ٣٠٠

(٦) انظر الأغانى (ساسى) ١٤/١٢٥–١٢٧ .

بدر ، ومثلها قصيدته الميمية (منع النومَ بالعشاء الهمومُ) التى يهجو فيها ابن الزِّبَعْرَى ويفتخر بقومه فخراً عنيفا ، ومن نمطهما لاميته (أهاجك بالبَيْداء رَسْمُ المنازل) . وبهذا القياس نُضيف إليه مقطوعته الكافية التى وجهها إلى أبى سفيان ابن الحارث ، وقد رواها ابن سلام[١] . ومثلها مقطوعته الدالية التى يستهلها بقوله :

وإن سَنام المجد من آل هاشم ... بنو بنت مخزوم ووالدُك العَبْدُ[٢]

ومقطوعته الميمية التى يقول فيها :

لعمرك إن إلّك من قريش ... كإل السَّقْبِ من رَأْلِ النَّعام[٣]

وأيضاً نحن نثبت له قصيدته الهمزية التي يقول فيها لأبى سفيان بن الحارث :

هجوتَ محمدًا فأَجبتُ عنه ... وعند الله فى ذاك الجـزاءُ

وهو يستهلها بذكر منازل صاحبته مشبِّباً بها ومستطرداً إلى ذكر الخمر على طريقة الجاهليين ، مما جعل القدماء يقولون إن القصيدة تتكون من جزءين : جزء نظم فى الجاهلية ، وجزء نظم فى الإسلام[٤] . وهو يمضى فى الجزء الثانى متحدثاً عن فروسية قومه ومتوعداً قريشاً بحروب مُبيرة ، وتختلط فى هذا الجزء المعانى الجاهلية بالمعانى الإسلامية إذ يَعْرض لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم ومتابعة قومه له ونصرتهم لدينه . من مثل قوله :

وجبـريلٌ أَمينُ الله فينـا ... وروحُ القُدْس ليس له كِفاءُ[٥]

وقد تبرز المعانى الإسلامية فى بعض أهاجيه لقريش كقوله من مقطوعة يعيِّرها فيها بهزيمتها يوم بدر :

فينا الرسولُ وفينا الحقُّ نَتْبعه ... حتى الممات ونصْرٌ غير محدودِ
مستعصمين بحَبْلٍ غير مُنْجذمٍ ... مُسْتحكمٍ من حبالِ الله ممدود[٦]

---

(١) ابن سلام ص ٢٠٨ والديوان ص ١٩ .
(٢) بنت مخزوم : فاطمة بنت عمرو المخزومى وهى أم عبد الله وأبى طالب والزبير بنى عبد المطلب .
(٣) السقب : ولد الناقة . الرأل : ذكر النعام . الإل : القرابة .
(٤) انظر الاستيعاب ص ١٢٩
(٥) كفاء : كفء ونظير .
(٦) منجذم : منقطع .

وهو يشير فى البيت الثانى إلى قوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) . وله مراثٍ فى الرسول الكريم تتضح فيها المعانى الإسلامية اتضاحاً على نحو ما يلقانا فى مرثيته التى رواها أبو زيد الأنصارى والتى يقول فيها :

وما فقد الماضون مثل محمَّدٍ ولا مثله حتى القيامة يُفْقَد

وقد مرَّت بنا فى الفصل السابق مرثيته البديعة لأبى بكر الصديق ، ومن قوله فى عمر حين توفِّى على إثر طعنة فيروز المجوسى :

وفجَّعنا فَيْروزُ لا دَرَّ درُّهُ بأَبيض يتلو المُحْكمات منيبِ [1]

وعلى هذا النحو اتشحت بعض أشعار حسان الإسلامية بأضواء الدين الحنيف وهديه الكريم .

٣

كعب[2] بن زهير

أبوه زهير بن أبى سُلْمى من فحول الشعر فى الجاهلية . وهما من قبيلة مزينة ، ولكنهما يوضعان فى عِداد غطفان حيث عاش زهير مع بنيه بين أخواله بنى مُرَّة الذُّبيانيين . وقد تلقن كعب الشعر عن أبيه ، مثله فى ذلك مثل أخيه بُجَيْر ومثل الحُطَيئة ، ويذكر لنا الرواة الطريقة التى كان يخرِّج بها زهير تلاميذه من أهل بيته وغيرهم إذ يقولون إنه كان يحفِّظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى تتضح موهبة الشعر فيهم . ويقولون عن كعب إنه كان يخْرج به إلى الصحراء ، فيُلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يُجيزه [3] تمريناً له وتدريباً . على صَوْغ

---

(١) لا در درره : الدر : اللبن وكثرته ، يدعو عليه بأن لا يزكو عمله . المحكمات : آيات الذكر الحكيم . وكنى ببياض عمر عن نقاء صحيفته .

(٢) راجع فى ترجمة كعب طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٨٣ وما بعدها والشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٨٦ وأغانى (طبعة الساسى) ١٥ / ١٤٠ وابن هشام ٤ / ١٤٤ وما بعدها والاستيعاب ص ٢٢٦ وأسد الغابة ٤ / ٢٤٠ والإصابة ٥ / ٣٠٢ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٣٠ والخزانة ١ / ٣٧٥ ، ٤ / ١١ . وقد طبعت دار الكتب المصرية ديوانه برواية ثعلب .

(٣) أغانى (طبع الساسى) ١٥ / ١٤١ وأمالى المرتضى (طبع الحلبى) ١ / ٩٧ .

الشعر ونظمه . ويبدو أن كعباً اشتهر فى الجاهليه بأكثر مما اشتهر الحُطَيْئة ، يدلُّ على ذلك ما يَرْويه ابن سلام من أن الحطيئة قال له : « قد علمتَ روايتى لكم أهلَ البيت وانقطاعى إليكم ، وقد ذهبت الفحول غيرى وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعنى موضعاً بعدك فإن الناس لأشعاركم أرْوَى وإليها أسرع »[١] . فقال كعب قطعته التى يقول فيها :

فمَنْ للقوافى شانَها من يَحُوكها ... إذا ما ثَوَى كعبٌ وفوَّز جَرْوَلُ[٢]

ومعروف أن كعباً وبجيراً أخاه والحطيئة أدركوا الإسلام ، وكان أسبقهم إلى الدخول فيه بُجَيْر ، وقد هجاه كعب حينئذ هجاء آذى رسول الله بمثل قوله[٣] :

ألا أبلغا عنى بُجَيْرًا رسالةً ... فهل لك فيما قلتُ ـ ويحك ـ هل لكا

شربتَ مع المأْمون كأْساً رَوِيَّةً ... فأَنْهَلكَ المأْمونُ منها وعلَّكا[٤]

وخالفتَ أسباب الهُدَى وتبعتَه ... على أَىِّ شىءٍ ـ ويْبَ غيرك ـ دَلَّكا[٥]

على خُلُقٍ لم تُلْفِ أُمًّا ولا أَباً ... عليه ولم تدرك عليه أَخاً لكا

ويقال إن الرسول سمع بهذا الشعر فتوعده ، وأجابه بُجَيْر فيما أجابه به بقوله[٦] :

من مبلغٌ كَعْباً فهل لك فى التى ... تلومُ عليها باطلا وهى أَحزمُ

إلى الله لا العُزَّى ولا اللاتِ وحده ... فتنجو إذا كان النَّجاءُ وتسلمُ

لدى يومَ لا ينجو وليس بمفلتٍ ... من النار إلا طاهرُ القلب مسلم

وما زال كعب على وثنيته حتى فُتحت مكة وانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف ، فكتب إليه بجير أن النبى صلى الله عليه سلم قتل كل من

---

(١) ابن سلام ص ٨٧ وانظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٢/١٦٥ .

(٢) ثوى وفوز : مات وهلك . جرول : الحطيئة .

(٣) مقدمة الديوان ص ٣ وأغانى (ساسى) ١٥/١٤٢ والسيرة ٤/١٤٤ والاستيعاب ص ٢٢٦ .

(٤) المأمون : الرسول وقيل بل أراد به أبابكر . النهل : الشرب الأول . العلل : الشرب الثانى .

(٥) ويب غيرك : هلكت هلاك غيرك ، وويب بالنصب على إضمار فعل .

(٦) الديوان ص ٤ والسيرة ٤/١٤٥ .

آذاه من شعراء المشركين إلا من أعلنوا إسلامهم ،ودعاه أن يَقْدم على رسول الله تائباً . وشرح الله صدره للإسلام ، فقدم المدينة وبدأ بأبى بكر ، فوقع من نفسه « فلما سلَّم النبى صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته ، فقال : يا رسول الله ! هذا رجل جاء يبايعك على الإسلام ، فبسَط النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ يده ، فحسَر كعب عن وجهه ، وقال : هذا مقام العائذ بك يا رسول الله! أنا كعب بن زهير . فتجهَّمته الأنصار وغلَّظت له ، لذكره قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبَّت المهاجرة أن يُسْلم ويؤمِّنه النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمَّنه رسول الله»[1] ، وأنشده مدحته الخالدة :

بانتْ سُعاد فقلبى اليوم مَتْبُولُ متيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ[2]

فكساه النبى صلى الله عليه وسلم بُرْدة اشتراها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم ، وكان يلبسها الخلفاء بعد معاوية فى العيدين[3] . وقد اكتسى بها كعب حُلَّة مجد لا تبلى ، ولقّبت قصيدته من أجلها بالبردة . ونراه يسهلها بالغزل ، إذ يذكر سعاد وفراقها وأن قلبه مرتهن عندها فليس له فكاك ، وكأنه يتأثر أباه فى بعض غزله إذ يقول فى إحدى قصائده[4] :

وفارقتْك برَهنٍ لا فِكاك له يوم الوداع فأمسى الرَّهْنُ قد غَلِقَا[5]

ويُلحُّ فى وصف سعاد ويشبهها بالظبى ويشبه ريقها بالخمر ، متأثراً فى ذلك أباه فى نفس القصيدة ، كما تأثره فى الحديث عن إخلاف صاحبته لوعدها . ويخرج من ذلك إلى وصف ناقته مستلهماً ما نظمه أبوه فى هذا الموضوع من قبل . وما زال ينعت ناقته حتى قال يصوِّر خوفه وفزعه من رسول الله :

---

(١) ابن سلام ص ٨٣ والشعر والشعراء ١/١٠٤ وانظر الأغانى ١٤/١٤٢ .

(٢) انظر القصيدة فى ديوان كعب (طبعة دار الكتب المصرية) ص٦ . ومتبول : مغرم . وبانت : فارقت . ومكبول : مقيد .

(٣) ابن سلام ص٨٧ والشعر والشعراء ١/١٠٦ والإصابة ٥/٣٠٢ .

(٤) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص٣٣ .

(٥) غلق الرهن : لم ينفك أبداً .

وقلت خَلُّوا طريقى ـ لا أَبا لكمُ ـ فكلُّ ما قدَّر الرحمنُ مفعولُ
كلُّ ابنِ أنثى وإن طالتْ سلامتهُ يوما على آلةٍ حَدْباءَ محمولُ
أُنبئتُ أنَّ رسول الله أوعدنى والعَفْوُ عند رسول الله مأْمول
مَهْلاً هداك الذى أعطاك نافلةَ الـ قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل
لا تأْخذنّى بأَقوال الوشاة ولم أذنبْ ولو كثُرتْ عنى الأَقاويل
إن الرسول لنورٌ يُسْتَضاءُ بهِ مهنَّدٌ من سيوف الله مسلول[1]
فى عُصْبَةٍ من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أَسْلَمُوا زُولُوا[2]
زالوا فما زال أَنكاسٌ ولا كُشُفٌ عند الِّلقاء ولا مِيلٌ مَعَازيلُ[3]

ومضى يمدح المهاجرين حتى قال :

يمشون مشى الجمالِ الزُّهْرِ يَعْصمهم ضَرْبٌ إذا عَرَّدَ السُّودُ التنابيلُ[4]

يعرِّض بالأنصار لغلظتهم ـ كانت عليه ـ فأنكرت قريش ما قال ، وقالوا لم تمدحنا إذ هجوتهم . ولم يقبلوا منه ذلك حتى قال يذكر الأنصارَ :

من سَرَّه كرمُ الحياة فلا يَزَلْ فى مِقْنَبٍ من صالحى الأَنصارَ[5]
الباذلين نفوسهم لنبيِّهم يوم الهياج وسطوة الجَبَّارِ
يتطهّرون ـ كأَنه نُسُكٌ لهم ـ بدماء مَنْ عَلِقُوا من الكُفَّار[6]
صدموا عَلِيًّا يوم بَدْرٍ صَدْمةً دَانَتْ لوقْعَتِها جميعُ نزار[7]

---

(١) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند وهو خير السيوف .
(٢) زولوا : هاجروا .
(٣) أنكاس : جمع نكس وهو الضعيف الذليل . كشف : جمع أكشف وهو الذى ينكشف فى القتال وينهزم . ميل : جمع أميل وهو الجبان . معازيل : جمع معزال : وهو الذى ينعزل فى الحرب عن صحبه ومن يستغيث به .
(٤) الزهر : البيض . عرد : نكل وجبن . التنابيل : القصار .
(٥) المقنب : جماعة الخيل والفرسان .
(٦) علقوا : قتلوا .
(٧) يريد بعلى بنى على بن مسعود وهم بنو كنانة .

obeikandl.com

ورثوا السيادة كابراً عن كابرٍ إن الكرام همُ بنو الأخيار

وحَسُنَ إسلام كعب، وأخذ يصدر فى شعره عن مواعظ وحكم يستهدى فيها الذكر الحكيم، من مثل قوله :

لو كنت أعجبُ من شيءٍ لأعجبنى سَعْيُ الفتى وهو مخبوءٌ له القَدَرُ
يسعى الفتى لأمورٍ ليس يُدْرِكها والنفس واحدةٌ والهمُّ منتشِرُ
والمرْءُ ما عاش ممدودٌ له أملٌ لا تنتهى العيْنُ حتى ينتهى الأثَرُ

ونراه يردد كثيراً أن الله يرزق عباده، وأنه لا يتركهم بدون رزق فهو راعيهم الذى يَفْضُل عليهم. وهو الغنى الحميد، يقول :

أعلمُ أنى متى ما يأتنى قَدَرى فليس يَحْبِسُه شُحٌّ ولا شَفَقُ[1]
والمرء والمال يَنْمِى ثم يُذْهِبُهُ مَرُّ الدهور ويُفنيه فَيَنْسَحِقُ
فلا تخافى علينا الفقر وانتظرى فَضْلَ الذى بالغِنى من عنده نَثِقُ
إن يَفْنَ ما عندنا فالله يرزقنا ومَنْ سوانا ولسنا نحن نرتزق

وهو فى ذلك يقرب من زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر الشخص منهم فى رزق غد. بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغتفر. وله قصيدة لامية يظهر أنه نظمها فى الجاهلية لما يذكر فيها من شربه الخمر مع من يصطفيه. ويظهر أنه عاد فأدخل فيها بعد إسلامه هذه الأبيات :

فأقسمتُ بالرحمن لا شىء غيره يمينَ امرىءٍ بَرٍّ ولا أتحلَّلُ[2]
لأستشعرنْ أعلى دَرِيسَىَّ مسلما لوجه الذى يُحْيِى الأنام ويقتل[3]
هو الحافظُ الوَسْنانَ بالليل مَيِّتاً على أنه حَىٌّ من النوم مُثْقَلُ[4]
من الأسودِ السارى وإن كان ثائرا على حَدِّ نابيه السِّمامُ المُثَمَّلُ[5]

---

(١) شفق : خوف.
(٢) لا أتحلل : لا أستثنى.
(٣) الدريس : الثوب البالى. كنى بذلك عن حسن إسلامه وتوكله على الله الذى يحيى ويميت.
(٤) الوسنان : النائم.
(٥) الأسود : الأفعى. السارى : الذى يسير ليلا. الثائر : الطالب بثأر. المثمل : المجمَّع

وهى تنمّ عن ولائه لدينه الحنيف وأنه أسلم وجهه لربه ، جل جلاله ، الحافظ الذى يكلأ عباده ويقيهم الأذى ، ولعلّ فى ذلك ما يدل دلالة واضحة على مدى تأثير الإسلام فى نفسه وفى شعره . وديوانه يدل — كما يدل تأخره فى إسلامه — على أنه كان فيه شر كثير ، إذ نراه دائماً فى شعره الجاهلى مفاخراً متوعداً مهدداً ، حتى إذا أسلم أخذت نفسه تصفو ، وأخذ يستشعر معانى الإسلام الروحية ، وما دعا إليه من الخلق الفاضل ، حتى لنراه فى الهجاء نفسه يعلن لهاجيه أنه يصفح الصفح الجميل ، سائقاً له ، لا من الشتم والسباب ، بل من الحكم ، ما يحاول به أن يكفّ أذاه عنه ، يقول[1] :

إن كنت لا ترهب ذَمِّى لما ... تعرف من صَفْحِى عن الجاهل
فاخْشَ سكوتى إذ أنا منصتٌ ... فيك لمسموع خَنَا القائل
فالسامع الذامِّ شريكٌ له ... ومطعمُ المأكول كالآكل
مقالةُ السُّوءِ إلى أهلها ... أسرع من مُنْحَدِرٍ سائل
ومَنْ دعا الناس إلى ذَمِّهِ ... ذَمّوه بالحق وبالباطل
ولا تَهِجْ إن كنت ذا إرْبَةٍ ... حَرْبَ أخى التجربة العاقل[2]
فإنَّ ذا العَقْل إذا هجتَهُ ... هِجْتَ به ذا خَبَلٍ خابِلِ

فهو ينهاه أن لا يجعل الصفح عنه سبباً إلى سوء القول ، حتى لا يجنى على نفسه ما هو أقبح أثراً وأبقى وسماً ، ويقول إن الذين يبسطون ألسنتهم بالهجاء سرعان ما يرتد عليهم هجاءً أقذع وأمرّ ، هجاء بالحق وبالباطل . وهو فى ذلك كله يأخذ بأدب القرآن ورسوله عليه الصلاة والسلام من العفو والصفح ومن التقريع لمن يهجوه بدلا من الطعن فى الأعراض سنّتهم القديمة .

---

(١) الخزانة ٤/١٢ والاستيعاب ص ٢٢٧ والحيوان ١/١٥ .

(٢) الإربة : الدهاء .

٤

لبيد[١]

من عشيرة ذات سيادة وشرف فى بنى كلاب العامريين ، هى عشيرة بنى جعفر ، وقد اشتهر فيها أبوه ربيعة وأعمامه الطُّفَيْل وأبو بَرَاء ومعاوية . أما ربيعة فكان بحراً فياضاً ، ومن ثَمَّ لُقِّبَ : « ربيعَ المُقْتِرين » وقد قتلته بنو أسد فى بعض حروبها مع قومه . وأما الطفيل فكان فارساً مغواراً وهو أبو عامر المشهور هو الآخر بفروسيته ، وكذلك كان أبو براء شجاعاً مقداماً وكان يلقَّب بملاعب الأسنة ، أما معاوية فكان ذا رأى وحكمة ، فلقِّب بمعوِّذ الحكماء . وأم لبيد تامرة بنت زنباع العَبْسية .

وقد نشأ لبيد يشعر شعوراً عميقاً بكرامة أسرته وأمجادها ومناقبها ، وبمجرد أن شبَّ أخذ يشترك فى حروبها وغاراتها ووفادتها على أمراء الحيرة ويقصُّ الرواة من ذلك حديثاً يتصل — إن صَحَّ — بأول ما كان من تيقظ موهبته الشعرية وهو لا يزال حَدَثاً ، فهم يروون أن وفداً من قومه على رأسه عمه أبو براء وفد على النعمان بن المنذر ، فوجد هناك وفداً من بنى عَبْس على رأسه الربيع بن زياد ، وكان بين العبسيين وبنى عامر قبيلة لبيد عداوة منشؤها أن العامريين قتلوا زهير بن جذيمة سيد بنى عبس فى بعض حروبهم . ولم يلبث الوفدان أن اصطدما ، وأخذ الربيع يدسُّ على العامريين عند النعمان . وعرفوا ذلك ، فاستشاط لبيد غضباً ، ووثب بين يدى النعمان يهجو الربيع برجز

---

(١) انظر فى ترجمة لبيد ابن سلام ص ١١٣ والشعر والشعراء ١ / ٢٣١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٥ / ٣٦١ وطبعة الساسى ١٥ / ١٣٠ وطبقات ابن سعد ٦ / ٢٠ وأسد الغابة ٤ / ٢٦٠ والموشح ص ٧١ وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١ / ١٨٩ والاستيعاب ص ٢٣٥ والإصابة ٦ / ٤ والمعمرين ص ٦٠ والخزانة ١ / ٣٣٤ وقد طبع الخالدى جزءاً من ديوانه سنة ١٨٨٠ ونشر هوبر جزءاً آخر سنة ١٨٨٧ وأضاف بروكلمان بقية طبعت فى ليدن سنة ١٨٩١ وطبع الديوان أخيراً طبعة علمية محققة اضطلع بها إحسان عباس ونشرت فى الكويت سنة ١٩٦٢ .

مقذع ، فانصرف النعمان عن الربيع وأجزل فى إكرامه للعامريين . وسواء أصحَّ هذا الخبر أولم يصح فإن لبيدا أخذ منذ سال الشعر على لسانه ينظمه فى الفخر بعشيرته والاعتداد بها اعتداداً بالغاً . ويقال إنه كان يكتمه فى أول الأمر . حتى إذا نظم معلقته : « عَفَتِ الديار محلُّها فمقامها » أخذ يظهره ، وأخذ اسمه يطير فى القبائل . ولما سارت الركبان بأمر الرسول فى المدينة ورسالته النبوية أرسله عمه أبو براء برسالة إليه[1] ، فوقع الإيمان فى قلبه ، إلا أنه لم يُعْلِن إسلامه حينئذ . وعاد إلى قبيلته ، حتى إذا استدار العام خرج مع وفد منها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأعلنوا دخولهم فى دين الله . وكان ابن عمه عامر بن الطفيل وأخوه أربد وفدا على الرسول قبل ذلك يريدان به شرًّا فعصمه الله . ودعا عليهما . فلم يلبث عامر أن أصابه طاعون فى عنقه فقتله . أما أربد فنزلت عليه صاعقة من السماء أهلكته . وظل لبيد بعد إسلامه يبكيه بكاء حارًّا .

ورجع لبيد بعد إعلانه إسلامه إلى قبيلته يذكر لهم البعث والجنة والنار ويقرأ لهم القرآن . وما زال بينهم حتى خَطَّ عمر الكوفة فنزلها وأقام بها إلى أن توفَّاه الله فى صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة . ويقول الرواة إنه شغَل نفسه حينئذ بالقرآن وتلاوته ولم ينظم الشعر إلا قليلا . ويصوِّرون ذلك فيقولون إن عمر أرسل إلى المغيرة بن شُعْبة واليه على الكوفة : أن استنشدْ من قِبَلك من شعراء مصرك ما قالوا فى الإسلام . فلما سأل لبيداً عن شعره انطلق فكتب سورة البقرة فى صحيفة ، ثم أتاه بها . وقال : أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر ، فكتب المغيرة بذلك إلى عمر . فأمر أن يزيد عطاءه خمسمائة وكان ألفين . ويمضى الرواة فيزعمون إنه لم يقل فى الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه[2] . فمن قائلٍ هو قوله :

الحمدُ لله إذ لم يأتنى أَجَلِى حتى كسانى من الإسلام سِرْبالا

---

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٥ / ١٣١ .
(٢) الشعر والشعراء ١ / ٢٣٢ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٥ / ٣٦٩ وانظر الاستيعاب ص ٢٣٥ حيث يذكر بيتاً ثالثاً .

ومن قائلٍ ، بل هو قوله :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه والمرْءُ يُصْلحه الجليسُ الصالحُ

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعانى الإسلام ومثاليته الروحية ، بحيث يمكن أن نقسم شعره قسمين : قسماً جاهليًّا وقسماً إسلاميًّا .

وهو فى القسم الجاهلى لا يخرج إلى مديح أو هجاء ، بل يمضى مفاخراً فخراً عنيفاً بآبائه وفتوته معتدًّا اعتداداً لا حدّ له بالأقربين من أسرته ، ومن ثَمّ وقف مع ابن عمه عامر بن الطفيل ضد علقمة بن عُلاثة حين تفاخرا إلى هرم بن قُطْبة الفزارى[1] واقرأ فيه فستجده دائماً فى هذا القسم مفاخراً بقومه وشجاعتهم وبلائهم فى الحروب وما لهم من مناقب جليلة حتى إذا أفضى إلى نفسه تحدث عن شمائله وتجشّمه لسُرَى الليل بأصحابه وفتوته وكيف يسقى الخمر لذاته ، وكيف يقامر ليطعم الجائع المحروم . وكثيراً ما يهجم فى قصائده على هذا الفخر ، وقد يقدم لذلك بمقدمات ، على نحو ما صنع فى معلقته ، إذ بدأها بذكر الديار وذكر الأحبة الظاعنين ، ثم مضى يصف اقتحامه للصحراء على ناقته ، وسرعان ما شبهها بأتان وحشية ، استرسل فى الحديث عنها وعن حمار كان يصاحبها ويلاعبها . وخرج من ذلك إلى تشبيهه لها ببقرة وحشية مذعورة لفقد طفلها ، ويسترسل فى وصف تعقب الرماة لها وإرسالهم جوارح الكلاب عليها ، ويخلص إلى الفخر بكرمه وبسالته ومنادمته لرفاقه ، ويفخر بقومه وكثرة سادتهم وما سنّه لهم آباؤهم . يقول :

إنا إذا التقتِ المجامعُ لم يزل منا لِزازُ عظيمةٍ جَشَّامُهـا[2]

ومقسِّمٌ يُعْطى العشيرة حَقَّها ومُغَذْمِرٌ لحقوقها هضَّامها[3]

فَضْلاً ، وذو كرمٍ يُعين على النَّدَى سَمْحٌ كسوبُ رغائبٍ غَنَّامها

---

(١) أغانى (ساسى) ١٥/٥٢ .

(٢) اللزاز : الملازم للشىء ، جشامها : من التجشم وهو ركوب الخطر .

(٣) مغذمر : لايعطى . هضام هنا : يعطى قوماً ويحرم آخرين .

من مَعْشَرٍ سَنَّتْ لهم آباؤهم ولكل قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها
فبنوا لنا بَيْتاً رفيعاً سَمْكُهُ فسما إليه كهْلها وغلامهـا
فاقْنَعْ بما قسمَ المليكُ فإنَّما قسمَ الخلائقَ بيننا عَلاَّمهـا

وشعره الجاهلى دائماً على هذه الوتيرة من الحديث عن مناقب آبائه ومفاخره ووصف راحلته وتشبيهها بالأتان المتوجسة والبقرة المسبوعة أو النعامة الخائفة ، وقد يتحدث عن المطر . وهو فى ذلك كله يتميز بالإغراب الشديد فى لفظه ، حتى ليمسّ قارئه شىء من الضجر لكثرة ما يورد من أوابد الألفاظ وحوشيِّها . واقرأْ ما لم نَرْوه من المعلقة قبل هذه الأبيات التى أنشدناها فإنك ستجده مفرَغاً فى ألفاظ متناهية فى الإغراب . ومن ثمَّ وصف شعره أبو عمرو بن العلاء فقال : إنه رحى بَزْرٍ[1] ، يريد أنه خشن لا يَحْسن فى السمع ، وقال الأصمعى . شعر لبيد كأنه طيلسان طبرانىّ أى أنه محكم الصنعة ولا رونق له .

وإذا انتقلنا من هذا القسم إلى شعره الإسلامى وجدنا قراءته للقرآن الكريم تَهذَّب من لفظه وتُدْخل عليه غير قليل من الطُّلاوة ، ومن ثَمَّ يقول فيه ابن سَلاَّم : « كان عذب المنطق رقيق حواشى الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق » ويتضح ذلك فى مراثيه المشهورة لأخيه أرْبد . فإن لألفاظها ماء ورونقاً وفى معانيها من الإسلام أصداء وظلالا ، وارجعْ إلى عينيته فستجد جمال السبك والصياغة ، وستجد الروح الإسلامية ماثلة فى تضاعيف أبياتها على شاكلة قوله[2] :

بَلِينا وما تَبْلَى النُّجُومُ الطَّوَالعُ وتَبْقَى الجبالُ بعدنا والمصانعُ[3]
فَلا جَزَعٌ إن فَرَّق الدهرُ بيننا وكل فتىً يوماً به الدهرُ فاجعُ
وما الناسُ إلا كالديار وأَهلهـا بها يومَ حَلُّوها ، وغَدْوًا بَلاقِعُ[4]

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ٧١ .
(٢) الديوان بتحقيق إحسان عباس ص ١٦٨ .
(٣) المصانع : الأبنية الضخمة .
(٤) بلاقع : جمع بلقع وهو الأرض القفر . وغدوا : غدا .

وما المَرْءُ إلا كالشهاب وضَوْئه يَحُورُ رَمادًا بعد إذ هو ساطع[١]
وما البِرُّ إلا مُضْمَراتٌ من التُّقَى وما المال إلا عارياتٌ ودائعُ

وليس كل ما حدث من انقلاب فى شعره الإسلامى أنه انتقل من الألفاظ الحوشية إلى الديباجة الطلية . فقد تغلغل الإسلام فى ضميره . فاتجه فى أشعاره إلى ربه منيباً إليه ، والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب الذى ينتظره . يقول فى قصيدة له[٢] :

إنما يحفظ التُّقَى الأَبرارُ وإلى الله يستقرُّ القرارُ
وإلى الله تَرْجعون وعند الله وِرْدُ الأمور والإصدارُ
كلَّ شىءٍ أحصى كِتاباً وعِلْماً ولديه تجلَّتِ الأَسرارُ
إن يكن فى الحياة خيرٌ فقد أُنْ ظِرْتُ لو كان ينفع الإنظارُ[٣]
عشتُ دهرا ولا يدوم على الأَيَّ ام إلا يَرَمْرَمٌ وتِعَــارُ[٤]

فإنك تجده يتحدث عن التقوى والأبرار والعمل الصالح وأن الناس معروضون على الله يوم القيامة وقد أُحْصِى كل شىء فى كتاب وأن الموت حق لا شك فيه وأن على كل إنسان أن يفكر فى مصيره . ويمضى فى طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ مَنْ حوله بما أهلك الله من الأمم الخالية مخوِّفا من الموت ويوم الحساب ، وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح ، ومهوناً من الدنيا ومتاعها الزائل ونعيمها الفانى ، على نحو ما نرى فى لاميته التى نؤمن بأنه نظمها فى الإسلام ، وفيها يقول[٥] :

أَلا كلُّ شىءٍ ما خلا الله باطلُ وكلُّ نَعيمٍ لا محالَة زائلُ
وكلُّ أُنَاسٍ سوف تدخل بينهم دُوَيْهِيَــةٌ تصفرُّ منها الأَنامل[٦]

---

(١) يحور : يصير .
(٢) ديوان لبيد ص ٤١ والحيوان ٧/١٦٣ .
(٣) الإنظار : التأخير .
(٤) يرمرم وتعار : جبلان فى نجد .
(٥) الديوان ص ٢٥٦ والشعر والشعراء ١/٢٣٧ والطبرى ٥/٢٨ .
(٦) يريد بالدويهية الموت .

وهو فى البيت الأول يستمد من مثل قوله تعالى : (كلُّ من عليها فان ويبقى وجه ربِّك ذو الجلال والإكرام) ويستمد فى البيت الثانى من مثل قوله جلَّ وعز : (كلُّ نفس ذائقةُ الموت) أما البيت الثالث فاستمدَّه مباشرة من قوله تبارك وتعالى عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب : (أفلا يعلم إذا بُعثر ما فى القبور وحُصِّل ما فى الصدور) . واسترسل فى القصيدة يتحدث عن النعمان بن المنذر وملكه وأجناده وكيف بادوا جميعاً مما جعل القدماء يظنون أنه نظمها فى رثائه[١] وفى الواقع كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتى على الملوك والأمم ، ومن ثَمَّ مضى يتحدث عن الغساسنة وأصحاب الرَّسِّ وكيف أمسى كل ما كانوا فيه أحلاماً . وعلى هذا النمط نفسه لامية أخرى يستهلها بقوله[٢] :

لله نافلةُ الأجلِّ الأفضـــلِ وله العُلا وأثيثُ كل مُؤثَّل[٣]

لا يستطيع الناسُ مَحْوَ كتابهِ أنَّى وليس قضاؤه بمبدَّل

وهو فى هذا المطلع يستلهم الذكر الحكيم وما فيه من أوصاف الذات العلية ، وأن كل ما يجرى فى الكون بقضائه وأن كل ما يأتى من عمل فى كتاب مبين ، وأن كلا سيُجْزَى بما سجَّل عليه كتابه ، يقول سبحانه : (وكلَّ شئ أحصيناه كتاباً) (وكان أمر الله قدَراً مقدوراً) (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) . ويمضى لبيد فى القصيدة فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما أصاب بعض العماليق ولقمان ونَسْره وأبرهة وأمراء المناذرة والغساسنة من رَيْب الزمان . ومن هذه الشاكلة نفسها موعظته[٤] :

من يَبْسُطِ اللهُ عليه إصْبَعا بالخيرِ والشر بأىٍّ أُولعا[٥]

يملأْ له منه ذَنوباً مُتْرَعَا وقد أَباد إرَمـــاً وتُبَّعا[٦]

والحق أن تلاوته للقرآن التى اشتهر بها أثَّرت فى نفسه آثاراً عميقة . وقد يكون الرواة تزيدوا فى بعض هذه الأشعار ولكن كثرة ما يُنسَبُ إليه منها يدل على أن

---

(١) انظر الديوان ص ٢٥٤ .

(٢) الديوان ص ٢٧١ .

(٣) أثيث : موطأ عظيم . مؤثل : مؤصل ، ويوصف به الملك والمجد .

(٤) الديوان ص ٣٣٧ .

(٥) الإصبع : الأثر الحسن .

(٦) ذنوباً مترعاً : دلواً مملوءا .

الإسلام تعمق روحه ، وأنه استشعر معانيه ومواعظه، فمضى يحيلها أبياتاً وأشعاراً ، بل قصائد دينية ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من أجود هذه القصائد لاميته المقيدة التي يقول فيها[١] :

إن تَقْوَى ربِّنـــا خيرُ نَفَلْ ... وبإذن الله رَيْثِى وعَجَـــلْ[٢]
أَحْمدُ الله فلا نِدَّ لَهُ ... بيديه الخـــيرُ ما شاءَ فَعَلْ
من هداه سُبُلَ الخَير اهتدى ... ناعمَ البال ومن شاءَ أَضلّ
فاكذبِ النفس إذَا حدَّثتها ... إنَّ صدْق النفس يُزْرى بالأَمل
غير أَن لا تَكْذِبَنْها فى التُّقَى ... واخْـــزُها بالبِرِّ ، لله الأَجلّ[٣]

ونراه يذكر فى هذه القصيدة رحلة له لعلها رحلته إلى الكوفة كما يذكر فقده لأربد ويبكيه . وعلى هذا النحو يظل لبيد بشعره الإسلامى مستمسكاً بالعروة الوثقى زاجراً عن الدنيا وخُدعها داعياً إلى أن يكفَّ الإنسان عن سيئاته ومرغِّباً له فى الباقيات الصالحات حتى يغتنم بقية أجله بخير عمله .

٥

الحطيئة[٤]

اسمه جَرْول . ولُقِّب بالحطيئة لقصره أو لدمامته ، وقد ولد لأمة تسمى الضَّراء ، كانت لأوس بن مالك العَبْسى . ونشأ فى حجره مغموزاً فى نسبه ، وجعله ذلك قلقاً مضطرباً منذ أخذ يحسُّ الحياة من حوله ، وزاد فى اضطرابه وقلقه ضعفُ جسمه وقبح وجهه ، إذ كانت تقتحمه العيون . ولم يكن فيه

---

(١) الشعر والشعراء ١/٢٣٨ والديوان ص١٧٤وما بعدها .
(٢) النفل : العطية . الريث : البطء .
(٣) اخزها : سسها واقهرها .
(٤) انظر فى ترجمة الحطيئة ابن سلام ص ٨١ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٢٨٠ والأغانى (طبع دار الكتب) ٢/١٥٧والإصابة ٢/٦٣ والخزانة ١/٤٠٨ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ١/١٥٣ وما بعدها. ونشر ديوانه فى إستانبول ، ونشره جوند تسيهر والشنقيطى ، وكذلك نشره نعمان أمين طه بمطبعة الحلبى ، وسنعتمد على نشرته .

فضل شجاعة يستطيع أن يتلافى به هوان شأنه فى « عبس » على نحو ما صنع عنترة من قبله . ومن ثَمَّ نشأ يشعر بغير قليل من المرارة، ولعل هذا هو السبب فى غلبة الهجاء عليه .

ولما تيقظت فى نفسه موهبة الشعر لزم زهير بن أبى سُلْمى يعلمه إحكام صنْعه على نحو ما كان يعلم ابنه كعباً . ومر بنا أن الحطيئة كان يَرْوى شعر كعب أيضاً ، وأنه طلب إليه أن ينوِّه به ، حتى يدور على الألسنة ذكره . ومعنى ذلك أن الحطيئة من مدرسة زهير التى كانت تُعْنَى بالتعبير وصقله وتصفيته من كل شائبة ، كما كانت تعنَى بالمعانى ودقتها .

ويضيء الإسلام فى الجزيرة ، فلا يسارع إليه ، ومن هنا اختلف الرواة هل قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فأعلن إسلامه على شاكلة كعب ، أو أنه تأخرّ فى اعتناقه الإسلام ، حتى توفِّى الرسول الكريم . ونراه يسارع إلى الرِّدَّة ، مُعينا بشعره المرتدِّين ضد أبى بكر وخلافته ، حتى ليقول :

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا ... فيا لعبادِ الله ما لأَبى بكر
أيُورِثها بكراً ، إذا مات ، بعده ... فتلك ، وبيتِ الله ، قاصمةُ الظهرِ

على أن من الرواة من نسب هذين البيتين إلى غيره[1] . وقد عاد مع المرتدين إلى الإسلام .

وجمهور شعره يدور فى المديح والهجاء ، ويقول الأصمعى : « كان الحطيئة جشعاً سَؤولا ملحفاً دنىء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلا ، قبيح المنظر ، رثَّ الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول فى شاعر من عيب إلا وجدته ، وقلما تجد ذلك فى شعره »[2] . وقد يكون الأصمعى بالغ فى نعته بهذه الصفات ، وحقًّا كان يمدح سادة القبائل بشعره منذ نشأ فى الجاهلية من أمثال عُيَيْنة بن حِصْن الفزارى وزيد الخيْل ، وكان يتورط فيما

---

(١) انظر الطبرى ٣ / ٤٧٦ حيث نسب البيتين إلى أخيه (٢) أغانى (دار الكتب) ٢ / ١٦٣ . الخطيل وقارن بالديوان ص ٣٢٩ والأغانى ٢ / ١٥٧ .

بينهم من خصومات ومنافرات ، إذ نراه يقف فى صف عيينة بن حصن حين نافر ابن عمه زبّان بن سيار ، كما نراه يقف فى صف علقمة بن عُلاثة حين نافر عامر بن الطفيل[١] . وكان غيره من الشعراء يصنعون صنيعه ، فقد كان الأعشى ولبيد يقفان فى صف عامر . وقد تكون حادثته مع الزِّبْرقان بن بدر هى التى شوهته ، ذلك أنه لقيه فى عهد عمر بن الخطاب يؤمّ المدينة ، وكان على صدقات قومه ، فلما عرفه دلّه على داره حيث زوجه وعشيرته ، فنزل بأهله ، وفزع بنو أنف الناقة — إذ كانوا ينافسون عشيرة الزبرقان — حين علموا ذلك ، وعملوا على أن يفسدوا العلاقة بينه وبين زوج الزبرقان ، وكانت قد تراخت فى استقباله . وأتيحت بذلك الفرصة لبنى أنف الناقة ، فضموا الحطيئة إليهم وبالغوا فى إكرامه ، وانطلق يُثْنى عليهم ثناء رائعاً معرِّضاً بالزبرقان بمثل قوله يخاطبه :

دَعِ المكارم لا تَرْحَلْ لبُغْيتها واقْعُدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسى[٢]

ورَفع الزبرقان أمره إلى عمر ، فحكّم حسان بن ثابت فيه ، فلما حكم بأنه هجاه حبسه . وأخذ الحطيئة يستعطفه بأبياته المشهورة التى يقول فيها :

ماذا تقول لأفراخٍ بذى مَرَخٍ زُغْبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شَجَرُ[٣]
ألقيتَ كاسِبَهم فى قَعْر مُظْلِمَةٍ فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عُمَر

ولان له قلب عمر ، فعفا عنه بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يعود إلى الهجاء ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم[٤] .

ونحن إذا قرأنا أشعاره المختلفة التى عرض فيها للزِّبْرقان وجدناه لا يُقْذع فى هجائه ، إنما يمسُّه على نحو ما رأينا فى بيته السالف برفق ، عامداً إلى التهكم والسخرية . ولا نشك فى أن الإسلام هو الذى خفّف من حدة لسانه ، ونراه يصرّح بذلك إذ يقول[٥] :

---

(١) ابن سلام ص ٩٣ وما بعدها .
(٢) يريد المطعوم المكسو .
(٣) ذومرخ : واد بالحجاز . الأفراخ : صغار الطير شبه بها أولاده . زغب الحواصل : لم ينبت على حواصلهم سوى الزغب القصير ، كناية عن صغرهم وأنهم لا يقوون على الطيران .
(٤) انظر فى القصة الأغانى ٢ / ١٧٩ وما بعدها .
(٥) الديوان ص ٩٨

ولما أن مدحتُ القوم قلتم هجوتَ ولا يحلُّ لك الهجاءُ
ألم أكُ مسلماً فيكون بيني وبينكمُ المودَّةُ والإخـــاء
ولم أَشْتُمْ لكم حسبا ولكن حَدَوْتُ بحيث يُسْتَمَعُ الحُدَاءُ

فهو يذكر حرمة الإسلام ، ويتذمم بها ، ويقول إنه حين مدح بني أنف الناقة وحّدا بهم فسمعه قوم الزبرقان جعلوا ذلك ذمًّا وهجاء ، لمدحه خصومهم . ونراه يولّي وجهه نحو علقمة بن عُلاثة ، لينشده إحدى مدائحه فيه ، ولكن الموت يسبقه إليه فيُجْزل له ابنه في العطاء . ويتجه نحو العراق في عهد عثمان . فيمدح الوليد بن عقبة واليه على الكوفة ، ويذود عنه حين يطعن عليه أهلها . وقد حُملت عليه أبيات في ذمه . ويمدح من بعده سعيد بن العاص الذي خلفه في تلك الولاية ، كما يمدحه في ولايته لمعاوية على المدينة (٤٩ — ٥٥ هـ) . ونرى أهلها يجْمعون له من أموالهم خشية معرة لسانه . والمظنون أنه توفّي في ولاية سعيد آنفة الذكر .

وقد كان على شاكلة زهير يُعْنَى بشعره وتجويده عناية شديدة ، وقد أُثر عنه أنه كان يقول : « خير الشعر الحولي المحكّك » فهو ممن كان يتأنّون في شعرهم ، ويعيدون فيه النظر ، حتى تخرج جميع الأبيات مستوية في الجودة والروعة . ولعل ذلك ما جعله يُكثر من المقطّعات ، ونراه في مطوّلاته يشبّب ويصف الصحراء وحيوانها الوحشي والأليف . ومدائحه لا تقل عن مدائح زهير جودة على شاكلة قوله في بني أنف الناقة :

يسوسون أحلاماً بعيدا أناتُها وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والجِدُّ
أولئك قومٌ إن بَنَوْا أحسنوا البِنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عَقَدوا شدُّوا

وكانوا يعيّرون باسمهم ، فما هو إلا أن قال معرّضاً بالزبرقان وعشيرته :

قومٌ هم الأنفُ والأذنابُ غيرهمُ ومن يُسَوّى بأنف الناقة الذَّنبا

حتى أصبح اللقب فخراً لهم . وتُرْوَى له أهاج فى زوج أمه وفى أمه وفى ضيفانه . وكلها مزاح . حتى لنراه يمزح مع نفسه ، فيقول :

أرى لىَ وجها شوَّه الله خَلْقَــهُ فقُبِّحَ من وجْهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ

أما بخله الذى أشار إليه الأصمعى والرواة ، فقد غسله بكثرة مديحه للكرم ، وبقصيدته « وطاوى ثلاث »[١] وفيها يصور أعرابيًّا فقيرا نزل به ضيف ، وعياله من حوله يتضوَّرون جوعاً ، فهمَّ أن يذبح له أحدهم ، لولا أن عَنَّتْ له أتان وحشية ، فصادها وأطعمها ضيفه . والقصيدة رائعة فى وصف غريزة الكرم العربية .

والحق أن الرواة بالغوا فى اتهامه بالبخل ودناءة النفس ، كما بالغوا فى اتهامه بفساد الدين ، قد يكون رقيقه ولكنه ليس فاسده ، فقد كان يستشعره فى الهجاء بشهادة لسانه كما قدمنا . ونراه فى مديحه يكثر من ذكر جزاء الله لممدوحه على ما يقدم له من برِّه على شاكلة قوله فى بعض ممدوحيه :

فَلْيَجْزِهِ الله خيرًا من أَخى ثقةٍ وليَهْدِهِ بِهُدَى الخيرات هاديها

وقد يستهل المدح بالثناء على الله فى مثل قوله :

الحمد لله إنى فى جِوار فَتًى حامى الحقيقة نَفَّاعٍ وضَرَّار

وقال أبو عمرو بن العلاء : لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة[٢] :

من يَفْعَلِ الخير لا يعْدَمْ جوازيَه لا يذهب العُرْفُ بين الله والناسِ

ولعل فى ذلك ما يدل على أنه حَسُنَ إسلامه ، وأبلغ فى الدلالة على ذلك قوله فى وصف التقى والعمل الصالح[٣] :

ولستُ أرى السعادةَ جمع مال ولكن التقىَّ هــو السعيدُ

وتقوى الله خَيْرُ الزاد ذُخْرًا وعنــد الله للأتقى مــزيد

---

(١) الديوان ص ٣٩٥ وما بعدها .
(٢) أغانى ٢/١٧٣ .
(٣) أغانى ٢/١٧٥ والديوان ص ٣٩٣ .

فالسعادة فى رأيه ليست فى الدنيا وأموالها ومتاعها الزائل ، وإنما هى فى الآخرة ونعيمها ومتاعها الخالد الذى لا يُنال إلا بالتقوى . فهى السعادة الحقيقية . ومعنى ذلك أن الإسلام لم يظل بعيداً عن روح الحطيئة ، بل أخذ يُرْسل فيها مثل هذه الإشعاعات النيرة .

٦

النابغة[١] الجعْدىّ

هو عبدالله[٢] بن قيس من بنى جَعْدة العامريين ، ولد بالفَلْج جنوبى نجد ، ولما شبّ اضطرب فيما يضطرب فيه قومه من حروب ، ويقال إنه ظل ثلاثين عاماً فى الجاهلية لا ينطق الشعر ثم تفجّر على لسانه ، فسُمّى النابغة لنبوغه فيه بأخرة ، ويقال إن نبوغه فيه إنما كان فى الإسلام .

والنابغة الجعدى فى جاهليته مثل لبيد يتغنى بمفاخر قومه وانتصاراتهم فى حروبهم ويهجو خصومهم وخاصة بنى أسد الذين قتلوا أخا له فى بعض حروبهم مع قبيلته ، وقد بكاه كثيراً ، ومن بكائه فيه قصيدته التى يؤبّنه فيها بقوله[٣] :

فَتًى كَمُلَتْ أَخْلاَقُهُ غير أنه ... جوادٌ فما يُبْقى من المال باقيا

فَتًى تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صديقه ... على أَنَّ فيه ما يسوءُ الأَعاديا

ويقال إنه كان يفد بشعره على اللخميين فى الحيرة . ولما أخذت وفود العرب تفد على الرسول صلى الله عليه وسلم معلنةً إسلامها وفد عليه مع قومه سنة تسع للهجرة وأنشده قصيدة يقول فيها :

---

(١) انظر فى ترجمة النابغة : الشعر والشعراء ١/٢٤٧ وابن سلام ص١٠٣ وما بعدها والأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/١ وما بعدها وأسد الغابة ٥/٢ والاستيعاب ص٣٢٠ والإصابة ٦/٢١٨ وأمالى المرتضى ١/٢٦٣ والمعمرين ص٦٤ والخزانة ١/٥١٢ والموشح ص ٦٤ . وقد جمعت ماريا نالينو أشعاره ونشرتها فى روما سنة ١٩٥٣ .

(٢) اختلف المؤرخون فى اسمه هل هو عبد الله ابن قيس أو قيس بن عبد الله أو حبان بن قيس.

(٣) الشعر والشعراء ١/٢٥٢ والديوان ص ١٢٣ .

بَلَغْنَا السماء مَجْدُنا وجدودُنا وإنا لنَبْغى فوق ذلك مظهـرا

فقال له الرسول الكريم : فأين المظهريا أبا ليلى ؟ فأجابه : الجنة . وأعجب الرسول بشعره ومنطقه ، فقال له : لا يَفْضُضِ الله فاك[١] .

ويُظَنّ أنه لم يرجع مع قومه إلى منازلهم ، بل أقام فى المدينة مهاجراً ، حتى إذا كانت الفتوح خرج مع العرب ميمماً نحوالشرق والفُرْس مجاهداً فى سبيل الله ونَشْر الدعوة المحمدية. وقد أخذ يضيف إلى رائعته التى أنشدها الرسول أبياتاً كثيرة ، تصور حياته فى الإسلام وابتغاءه رضوان الله بجهاده وتقواه جميعاً يقول[٢] :

أتيتُ رسول الله إذ جاء بالهُدَى ويتلو كتابًا كالمجرَّة نَيِّرَا[٣]
وجاهدتُ حتى ما أحِسُّ ومَنْ معى سُهَيْلاً إذا مالاح ثُمَّتَ غَوَّرا[٤]
أقيم على التقوى وأرضى بِفِعْلِها وكنتُ من النار المَخُوفةِ أَوْجَرَا[٥]

وعاد إلى المدينة وتشوَّق إلى منازل قومه فى البادية ، فاستأذن عثمان فى الإلمام بهم فأذن له ، حتى إذا نشبت الحروب بين على ومعاوية وجدناه فى صفوف على بصِفِّين ، يَرْجُز بخصومه وينظم الأشعار فى مديحه وهجاء معاوية من مثل قوله[٦] :

قد علم المِصْرانِ والعِراقُ أن عَلِيًّا فَحْلُها العُتَاقُ[٧]
إن الأُلى جَارَوْكَ لا أفاقوا لهم سياقٌ ولكم سِياق
قد علمتْ ذلكم الرِّفاق سُقتم إلى نَهْج الهدى وساقوا
إلى التى ليس لها عِـراقُ فى مِلَّةٍ عـادَتُها النِّفـاقُ[٨]

---

(١) أغانى ٥/٨

(٢) أغانى ٥/٩ والديوان ص٣٣ وما بعدها.

(٣) المجرة : مجموعة من النجوم الصغيرة ينتشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء .

(٤) غور النجم : غاب .

(٥) أوجر : خائف .

(٦) أغانى ٥/٣١ والديوان ص ١٣٣.

(٧) المصران : الكوفة والبصرة. العتاق : الكريم.

(٨) التى ليس لها عراق : التى لا تعرف لها غاية.

ولعل هذا هو الذى جعله يصطدم بكعب بن جُعَيْل شاعر معاوية . ويُرْوَى أنه لما قُتل على وتحولت الخلافة إلى معاوية كتب إلى مروان عامله على المدينة أن يأخذ أهله وأمواله ، فاستعطفه بأبيات ألانت قلبه فعفا عنه .

ونراه يقف دائماً مع قومه ، حتى لَيُضْطَرّ أبو موسى الأشعرى والى البصرة لعمر أن يضربه أسواطاً ، وكأنما كانت فيه بقية من عصبيته الجاهلية . ولا نشك فى أن هذه البقية فيه هى التى دفعته إلى الاصطدام بأوس ابن مَغْراء ، ويقول ابن سَلاَّم إنه غلب عليه ولم يكن إليه فى الشعر ولا قريباً . ونزل مع قومه بأصبهان ، وهناك نراه يتهاجى مع سَوّار بن أوفى القشيرى ، وتتصدى له زوجه ليلى الأخيلية ، ويغلبان عليه جميعاً . وهما أيضاً لم يكونا إليه فى الشعر ، وربما كان لتعمق الإسلام فى نفسه أثر فى تلك الهزائم ، إذ كان يتحرج من المضى فى الهجاء المقذع ، ويقول ابن سلام إن الأخطل هجاه بأخرة . ولما دعا ابن الزبير لنفسه فى أواخر خلافة يزيد بن معاوية قدم عليه فى مكة ومدحه بقصيدة رائعة يقول فيها[1] :

حَكيتَ لنا الصِّدِّيقَ لما وَلِيتَنـــا ... وعثمانَ والفـــاروقَ فارتاح معدمُ
وسوَّيت بين الناس فى العدل فاستَووا ... فعادَ صباحا حالكُ الليل مُظْلِمُ

وأثابه ابن الزبير ثواباً جزيلا . وعاد إلى أصبهان ، غير أنه لم يلبث أن توفِّى بها عن سن عالية سنة خمس وستين . وهو بلا شك من المعمرين ، غير أن الرواة بالغوا فى ذلك حتى قالوا إنه أقدم من النابغة الذبيانى وأنه عُمِّرَ مائة وثمانين سنة بل تزيد ، مستشهدين بما أضيف إليه من مثل قوله[2] :

تذكَّرتُ شيئاً قد مضى لسبيله ... ومن عادة المحزون أن يتذكَّرا
نَدامای عند المنذر بن محرِّقٍ ... أرى اليوم منهم ظاهرَ الأرض مُقْفِرا

والمنذر بن محرق هو المنذر بن ماء السماء الذى قُتل فى بعض حروبه مع الغساسنة سنة ٥٥٦ للميلاد ، ولا شك فى أن هذا الشعر مصنوع عليه .

---

(١) الكامل للمبرد (طبعة وايت) ص ٧٠٤ (٢) أغانى ٦/٥ والديوان ص ١٣٧ .

ومن المحقق أن النابغة كان أحد الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية ، وقد خرج يجاهد فى سبيل الله ، وهو يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، فكان طبيعيًّا أن يستلهمه فى شعره . وهو من هذه الناحية من خير الأمثلة على أثر الإسلام فى شعر المخضرمين ومدى هذا الأثر ، إذ عبَّر فى غير قصيدة عن خشية الله وتقواه من مثل قوله[١] :

منعَ الغَدْرَ فلم أَهْمُمْ بهِ ... وأخو الغَدْرِ إذا هَمَّ فَعَلْ
خشيةُ اللهِ وأنِّى رجــلٌ ... إنمــا ذِكْرِى كنــارٍ بقَبَلْ[٢]

وهو دائم الحديث عن نعمة الله عليه بالإسلام ، وتحوله من ظلمات الوثنية إلى أضواء الدين الحنيف ، يقول[٣] :

عُمِّرْتُ حَتَّى جاء أَحْمَدُ بالهُدَى ... وقــوارعٍ تُتْلَى من القُــرْآنِ
ولبستُ مِلْ الإسلام ثَوْباً وَاسِعاً ... من سَيْبِ لا حَرِمٍ ولا مَنَّــانِ[٤]

وليس كل ما نجده عنده من أثر الإسلام أبياتاً مفردة تتخلل قصائده ، فإن له موعظة بليغة رواها غير راو ، وهى تطَّرد على هذا النمط[٥] :

الحمدُ للهِ لا شَرِيكَ لَهُ ... من لم يَقُلْها فنفسَهُ ظَلَما
المُولج الليلَ فى النهار وفى اللَّيْـ ... ـلِ نهارًا يُفَرِّجُ الظُّلَما
الخافضِ الرَّافعِ السماءَ على الْـ ... أَرْضِ ولم يَبْنِ تحتها دِعَما[٦]
الخالقِ البارئِ المصوِّر فى الْـ ... أَرْحامِ ماءً حتى يصيرَ دَمَا
من نُطْفَةٍ قَدَّها مقدِّرُهــا ... يَخْلُقُ مِنها الأَبْشارَ والنَّسما
ثُمَّ عِظاماً أقامها عَصَبٌ ... ثُمَّتَ لَحْماً كَسَاهُ فالْتَأَما
ثم كَسَا الرَّأسَ والعَواتِقَ أَبْـ ... ـشارًا وجِلْدًا تخاله أَدَما[٧]

---

(١) الديوان ص ٨١ وانظر الحيوان ٣/ ٥٠٤ .
(٢) القبل : النشز من الأرض يستقبلك ورأس كل أكمة أو جبل .
(٣) الديوان ص ١٣٧ وأمالى المرتضى ١/ ٢٦٦ .
(٤) مل الإسلام : من الإسلام . سيب : عطاء . حرم : مناع .
(٥) الشعر والشعراء ١/ ٢٥٣ وانظر الديوان ص ١٠٢ .
(٦) دعم : دعائم وعمد .
(٧) العواتق : جمع عاتق وهو المنكب .

والصَّوْتَ واللَّوْنَ والمَعايِشَ والـ أخلاقَ شَتَّى وفَرَّق الكَلِمَا
ثُمَّتَ لا بُدَّ أن سيجمعكم واللهِ ، جَهْـرًا ، شهادةً قَسَما
فائْتِمَرُوا الآنَ ما بدا لكمُ واعتصموا إن وجدتمُ عِصَما
فى هذه الأَرض والسماء ، ولا عِصْمَةَ منه إلا لمن رَحِمَا
يا أيها الناسُ هل ترونَ إلى فارسَ بَادَتْ ، وخَدُّها رَغِما[1]
أمسوا عَبِيدًا يَرْعَوْنَ شاءَ كُمُ كأنمـا كان مُلْكُهُمْ حُلُما
أو سَبَأَ الحاضرين مَأْرِبَ إذ يَبْنُون من دون سَيْله العَرِما
فمُزِّقوا فى البلاد واعترفوا الـ هُونَ وذاقوا البأْساءَ والعَدَما[2]
وبُدِّلوا السِّدْرَ والأَراكَ به الـ خَمْط وأضحى البُنْيانُ مُنْهَدِما[3]

والنابغة فى مطلع هذه العظة يُثْنى على الله بما هو أهله ، مقرراً إيمانه بوحدانيته وأنه لا شريك له ، ونحسُّ أنه يستعير لفظه من الذكر الحكيم ، فهو يستهل قوله بكلمة « الحمد لله » ولا يلبث أن يستلهم مثل قوله تعالى : « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون» . ويتحدث فى البيت الثانى عن نظام الكون المنبىء عن قدرة الله وجليل صنعه له وتقديره على نظام بديع ، مستعيراً من القرآن نفس لفظه فى قوله جلَّ وعز : (قل اللهم مالك الملك . . . بيدك الخير إنك على كل شىء قدير تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل) . وفى البيت الثالث مضى ينظم قوله تعالى : (الله الذى رفع السموات بغير عَمَدٍ ترونها) . وخرج فى البيت الرابع من خَلْقه للكون إلى خلقه للإنسان واستمر ينظم مثل قوله جلَّ وعز : (ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين ثم جعلناه نُطْفَةً فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة عَلَقَةً فخلقنا العلقة مُضْغَةً فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسنُ الخالقين) . وهو يمضى فيتحدث عن البعث والنشأة الثانية محذراً مخوفاً . وما يلبث أن يتحدث عن

---

(١) رغم الخد : كناية عن الذل .
(٢) اعترفوا الهون : عرفوه .
(٣) السدر والأراك : شجر لا ينتفع بثمره . الخمط : ثمر الأراك أو هو نبت مر .

القرون والأمم البائدة مكملا بذلك العظة والعبرة ، بالضبط على نحو ما نقرأ فى القرآن من حديث عما أصاب الأمم الباغية من هلاك ، وقد اقتبس منه ما جاء فيه عن دولة سبأ اقتباساً تتطابق فيه الألفاظ واقرأ قوله تعالى : (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال .. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا . . وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) ، فإنك تجده قد نظم الآيات الكريمة فى أبياته الثلاثة الأخيرة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح اتضاحاً لا لبس فيه أن أهل نجد والبوادى كان مثلهم مثل أهل الحواضر حين دخلوا فى الإسلام فقد تمثلوه وتألقت أضواؤه فى صدورهم وفى أشعارهم ، حتى لتتحول جوانب منها إلى مواعظ خالصة ينفرون فيها الناس من الدنيا ونعيمها الفانى ، حاثين لهم على التزود بالتقوى والعمل الصالح .